بعض الحقائق عن مقاومة الشريف بوشوشة من خلال بعض المصادر المحلية ومنها الشهادة التي أملاها بوشوشة على سجانه

أ.عواريب لخضر
قسم العلوم الانسانية
كلية العوم الانسانية والاجتماعية
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

الملخص:

تعتبر مقاومة الشريف بوشوشة من المقاومات التي أهملت رغم أنها عمت اغلب مناطق الصحراء الجزائرية ويعود ذلك إلى قلة المصادر الجزائرية التي اهتمت بها ، إما المصادر الفرنسية فقد جاءت مخالفة للحقيقة وصورت بوشوشة على انه قاطع طريق مغامر، ولكون اغلب المؤرخين الجزائريين قد اعتمدوا على هذه المصادر فقد جاءت دراساتهم مخالفة للحقيقة ولم يتجاوز بعضها الترجمة الحرفية لها لذلك أريد في هذه المداخلة أن أعطي بعض الحقائق بعد أن تحصلت على بعض المصادر المحلية وخاصة شهادة بوشوشة التي أملاها على سجانه ونشرت في إحدى الدوريات الفرنسية المهتمة بتاريخ الصحراء

Résumé:

La résistance du Shérif Bouchoucha est une résistance très négligée même si elle a balayé la plupart des régions du Sahara algérien en raison du manque de ressources algérienne, qui sont intéressés à l'étudié surtout que les sources françaises sont venues contraire à la réalité et ils ont considéré le résistant comme un aventurier et coupeur de route et le fait que la plupart des historiens algériens se sont appuyés sur ces sources dans leurs études qui était contraire à la réalité et ne dépasse pas une certaine traduction littérale a ces sources françaises c'est pourquoi j'asseye dans cette étude de portée quelques faits sur cette résistance après avoir obtenu certaines sources locales et privées surtout le témoignage de Bouchoucha dictées à son geôlier et publié dans l'une des périodiques françaises intéressées par le désert

مقدمة:

أنجبت الجزائر العديد من الشخصيات التي ساهمت في صناعة ملحمة التاريخ الوطني الا ان نشاطها ظل مهملا وفي أحيان كثيرة طاله التحريف والزيف ومن هذه الشخصيات **الشريف بوشوشة** الذي وقف ضد التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية خلال فترة تجاوزت العشر سنوات (1863-1874)، ورغم هذا النشاط الحثيث الا ان مقاومته ظلت مجهولة ولم تحظ بدراسة وطنية موضوعية تحاول ان تتجاوز الكتابات الفرنسية التي تحاملت على الشريف حيث تصفه هذه المصادر (خاصة لوي رين، والنقيب لوشاتوليي باعتبارهما المصدرين الأساسيين لهذه المقاومة) بنعوت مخزية فهو حسبها شريف مزيف (un Faux chérif) وقاطع طريق،صعلوك متمرد على السلطة الفرنسية،سارق عضو في جماعة لمدقنات وهي حسبهم عصابة سرقة ونهب.في حين نجد العديد من شعراء الملحون في المنطقة يمدحونه ويتغنون ببطولاته وانتصاراته على الفرنسيين وإذنابهم ومنهم الشاعر بن طريبة [1].

إن الباحث يحتار في هذين الوصفين المتناقضين من الذم إلى المدح كأن الموصوف ليس واحدا، هل وصف هذا الثائر من طرف شعراء الملحون بغير ما فيه أم أن المصادر الفرنسية تحاملت عليه، كل ذلك يجعل المؤرخ يدقق في

بحثه لتغليب كفة واحدة، هل نقبل بنعوت الفرنسيين وبعض الجزائريين الذين ترجموا لهم حرفيا، أم مدح هذا الشاعر الجزائري؟ وحتى أستطيع تغليب كفة على أخرى بحثت عن مصادر محلية في الموضوع، وقد حصلت على تقرير في Bulletin de liaison saharienne

يتحدث فيه بوشوشة عن مقاومته لسجانه وجاء تحت عنوان.

Comment Bouchoucha raconta un jour son histoire.

وكذلك مخطوط غصن ألبان في تاريخ الو رجلان للشيخ أعزام زيادة على رسالة الماجستير للأستاذ شافو رضوان التي اعتمد فيها على مخطوط التليلي المعروف ب فذلكة تاريخية، وكل ذلك مكنني أن أزيل إلى حد ما بعض اللبس عن مقاومة بوشوشة فمن هو بوشوشة؟ وما هي ظروف وأسباب ثورته؟ ومراحلها؟.

I. التعريف بالشريف بوشوشة: هو محمد بن التومي بن إبراهيم الملقب ب: بوشوشة ولد بمنطقة الغيشة بالقرب من آفلو أختلف في تاريخ ميلاده [2] أصله من الزيبان[i] التي قضى بها فترة من شبابه [ii] كان والده مداحا أو راوي شعبي في الأسواق والمجامع صحب لفترة أحد معلمي القرآن في البادية، اشتهر بالفروسية منذ شبابه.عرف عند أنه يعالج بالرقيا بالقرآن ويستعمل العلوم الروحانية للعلاجات المختلفة مثل السحر والعين...الخ. لذلك فإن المصادر الفرنسية تصفه بالساحر والمشعوذ والمستغل لسذاجة الناس[iii]، وهو تحامل وتحريف لأن هذه المهنة كانت سائدة خلال القرن19م في المجتمع الجزائري وكان لممارسيها مكانة مرموقة.كما عرف عنه أنه استقر لفترة وجيزة لدى أولاد عيسى بقصر كرادة بدائرة البيض[iv].وحسب تحقيق أجرى معه بجيرفيل (البيض) سنة 1862 أورد بوشوشة أنه كان كثير التنقل بين قصور تاويالة وبوعلام وأولاد سيدي الحاج بن عامل وغاسول وبريزينا لممارسة التطبيب الشعبي[v].

وقد اتهم بإحداث البلبلة وتهديد الأمن، رفقة زميلين له فمثل أمام المحكمة التأديبية بمعسكر يوم 1862/12/22 التي حكمت عليه بالسجن لمدة سنة وعلى رفيقيه مدة ثلاثة أشهر وسجن ثلاثتهم في سجن بوخنيفيس قرب سيدي بلعباس[vi]، أما بوشوشة فيعترف بأنه سيق إلى السجن ظلما كون القائد **الجديد بن ألنعيمي** قائد البيض سيد الشيخ قبض عليه بحجة أنه سيثير الشعب ضد فرنسا[vii] أما **لوي رين** فيرى أن سبب سجنه هو السرقة[viii] وهو طرح غير مقبول هدفه أن يبين أن بوشوشة بدأ حياته سارقا، فطبيعي أن يكون قاطع طريق وليس ثائر .وخلال هذه الفترة بدأ صيته يذيع وأصبح يجمع الأنصار والمؤيدين حوله مستقلا الظروف المختلفة التي سادت خلال تلك الفترة.

II. ظروف وأسباب المقاومة: اندلعت ثورة بوشوشة في ظروف عالمية ومحلية متميزة يمكن إيجازها في ما يلي:

- الانقلاب على النظام الإمبراطوري وميلاد الجمهورية الثالثة في 1870/03/04 وما انجر عنه من انعكاسات سياسية سواء في الجزائر أو فرنسا،حيث أدت إلى التطاحن بين المدنيين والعسكريين، وهو ما رفع معنويات الثوار الجزائريين[ix].
- صدور قانون كريميو الشهير القاضي بتجنيس اليهود وهو ما حمس الثوار[3].
- الحرب البروسية الفرنسية واضطرار فرنسا إلى ترحيل جزء من جيوشها نحو الجبهة الأوروبية وهو ما اعتبر فرصة سانحة للثوار.
- النشاط الحثيث لمحي الدين بن الأمير عبد القادر الذي وصل إلى تونس واتجه إلى الجنوب التونسي أين التقى بن ناصر بن شهرة، وقد أشيع خلال تلك الفترة أن محي الدين جاء ليخلص الجزائر، مستغلا الحرب الألمانية الفرنسية، وقد حرك هذا النشاط معظم الجنوب الشرقي وجعله مهيأ للثورة[4] خاصة بعد أن راسل محي الدين بن الأمير أعيان

الصحراء وحثهم على الجهاد، وكانت الرسائل بإمضائه أو بإمضاء بن ناصر بن شهرة وآخرين، وقد كان بن شهرة على علاقة وثيقة ببوشوشة وصديقا له[x].

- أما محليا فقد كانت الظروف مهيأة إلى حد كبير وتمثلت في انتفاضة الشرق الجزائري برمته من خلال العديد من الثورات منها ثورة الحنانشة وأولاد عبدون والنمامشة وأولاد عبيد والمقراني[xi].
- النزاع العائلي الذي كان على أشده حول السلطة والنفوذ بين أسرتي بوعكاز وبن قانة الذي تحول إلى نزاع سياسي بين المقاومة وممثليها من جهة وبين المحتل وأنصاره من جهة أخرى[xii].
- الظروف الطبيعية ممثلة في المجاعة التي عمت شمال البلاد سنة1867 التي تأثرت بها الصحراء من جراء توقف التبادل التجاري بين الشمال والجنوب، كما سلط المستعمر ضرائب مجحفة على سكان الصحراء لإضعاف إرادة المقاومة لديهم إلى درجة أن بعض سكان المنيعة لم يتمكنوا من دفع هذه الضرائب فدفعها عنهم شعانبة ورقلة تجنبا لانتقام السلطات الفرنسية[xiii].

وما يمكن ملاحظته أن المصادر الفرنسية ركزت على الظروف الطبيعية جاعلة منها السبب المباشر لكل مقاومة أو ثورة وبالتالي حولت هذه المقاومات إلى حركات جياع وليس حركات جهادية هدف من ورائها مفجروها تحرير البلاد، وطرد المحتل ولعلنا حين نقتطف هذه العبارة نبرز هذا التحامل والزيف.

((les Autres se trouvèrent réduit A prendre des lézards de sable a déterré quelques racines ou manger du dahnoun[xiv]))

وقد ترجمت بعض الأفلام الجزائرية السحالي الرملية les lézards de sable إلى الأفاعي، وهي ترجمة خاطئة فهو هنا يقصد سحالي رملية يطلق عليها محليا اسم (الزلقاق) أو (الشرشمان) وشتان بين أكل الأفاعي والسحالي، التي ما زلت إلى الآن تؤكل بل تصدر حتى إلى الخارج بالعملة الصعبة، أما أكل نباتات الأرض فهو عادة بدوية مع العلم أن بعض النباتات لا تتوفر إلى في السنين الممطرة ومنها نبتة الدانون التي أوردها لوشاتوليي فهي نبتة حساسة لا تكون إلا في المناطق الممطرة، وقد حاولت رفع اللبس في هذا الموضوع فقمت بدراسة حول كرونولوجيات البدو فوجدت السنوات الثلاثة التي سبقت الثورة لم تكن جافة حيث اشتهرت بغزارة أمطارها حتى وان لم يكن هناك كمأ (على اعتبار أن البدو يقيسون خصوبة العام بكثرة الكمأ) [xv].

وبالتالي فإن إدراج الجفاف وقساوة المناخ وجفافه طرح مزيف فثورة بوشوشة مثل غيرها من الثورات التي عرفتها الجزائر جاءت لإعلاء كلمة الحق وطرد المحتل، صحيح أن بعض الأعراب استغلوا هذه الثورات وانضموا إليها بغرض مصالح دنيوية بسبب الاحتلال وما أحدثه من تخلخل اجتماعي إلا أنها لا تصل إلى الحد الذي وصف به لوشاتولييي جماعة المداقنات.

III مراحل الثورة: مرت ثورة بوشوشة بالمراحل التالية:

1- مرحلة الإعداد والتحضير 1863- 1869:

بعد خروج بوشوشة من السجن بدأ التحضير للثورة حيث اتصل بثوار أولاد سيد الشيخ الذين تقربوا منه وحاولوا منحه قيادة نصف جنودهم ولكنه رفض كون أولاد سيدي الشيخ كانوا سببا في سجنه[5]، ثم رحل إلى طرابلس الغرب سنة 1864[6] لأسباب غير معروفة قد تكون للبحث عن المال والسلاح أو تلقي تعليمات من الزاوية السنوسية على اعتباراته أحد أتباعها[7]،وخلال هذه الرحلة زار نفطة [8] ثم عاد إلى الجزائر فزار العديد من المناطق مثل وادي ريغ وورقلة[xvi]،وحمل معه رسائل إلى بعض الشخصيات من المخادمة وبني ثور والشعانبة، الذين كانت لهم روابط مع الزاوية السنوسية والقادرية منذ ثورة **محمد بن عبد الله** ومنهم لخضر المخدمي، ولبزأحمد والشائب من الشعانبة والمصطفى من بني ثور، والخازن من عجاجة، كما أقام[xvii] علاقات طيبة مع الزاوية الرحمانية في عين البيضاء وعجاجة ثم انتقل إلى الأغواط ومنها إلى توات، وحيثما حل استقبل بحفاوة ومتن علاقته بالزوايا والطرق الصوفية، وخلال تواجده بعين صالح أين كان يحضر نفسه للذهاب إلى فدامس، اتصلت به مجموعة من الثوار وهم معطالله بن بوظفر و وبوخشابة وهم من شعانبة ورقلة يصفهم لوشاتولييبي بالمداقنات، ويرى أنهم قطاع طرق كانوا يقومون بعمليات الغزو والنهب[xviii]، ولكن الدارس للمكون الاجتماعي لهذه الجماعة يرى أنها تضم العديد من الأبطال الذين عرف عنهم الجود والكرم والشجاعة، مثل أولاد باحمو من عين صالح أو أولاد لشهب من المنيعة وهذه الجماعة بدأت تشن حرب استفزاز على فرنسا وعملائها إذلم تكن تغزو إلا العروش والقبائل التي تبث تورطها مع فرنسا، وحسب بوشوشة فإنه كان يرفض المشاركة في هذه العمليات ويطالب بأن يركز على العدو مباشرة، وكانت المجموعة تمنحه نصيبا من غنائمها ثم طلبت منه قيادتها فواقف مع اشتراط أن تكون العملية ضد فرنسا[xix]، ولعل هذا النصيب زيادة على ما كان يصله من مؤن وذخائر من مختلف القبائل والعروش كان النواة المادية الأولى لإعلان الثورة، ومن عين صالح أعلن نفسه زعيما للثورة فبايعه شعانبة المواضي، ثم شعانبة ورقلة سنة 1870 وبذلك انتقل إلى المرحلة الثانية من مقاومته.

2- مرحلة المقاومة والانتصار1870 – 1872:

بعد أن بايعته العديد من القبائل أعلن الثورة وتحرك باتجاه المنيعة ودخلها في أفريل 1870 بعد أن قبض على **القائد جعفر** المعين من طرف فرنسا[xx]، وفي 05 مايو وصل إلى نواحي متليلي التي لم يقاومه أهلها بل على العكس قدمت إليه العديد من الهدايا فغادرها عائدا إلى سبسب وهناك لحقت به كوكبة من قوم الأرباع تحت قيادة قائد مخزن الأغواط **لخضر بن محمد** واستطاع المقاومون الانتصار على هذه الكوكبة يوم 11 مايو 1870[xxi].بعد هذا التحرك الخاطف الذي كان بمثابة الإعلان عن الثورة واختبار القوة عاد بوشوشة إلى عين صالح التي مكث بها عشر أشهر دون نشاط عسكري يذكر من مايو 1870 إلى مارس 1871[xxii].

وخلال هذه الفترة أرسل جماعة من سكان ورقلة رسالة إلى الثوار جاء فيها «...لا تبقوا يوما واحدا، أقدموا بخيامكم، أحضروا بوشوشة معكم، لم يبق فرنسي واحد لا أحد يحكم إلا قيادنا يعاملونا بظلم تعالوا لتخلصونا»[xxiii].وقبل دخول المدينة جمع إتباعه وخطب فيهم خطبة حماسية أكد فيها أن ساعة الخلاص قد حانت ومن جملة ما قال (....إن كنتم ترغبون فقط في السلب والنهب فلست منكم ،وأما إذا عاهدتموني على أن تعطوني السيادة على ورقلة فاني اقبل

قيادتكم شريطة معاهدتي على الصبر حتى النصر آو الشهادة .....)[9]..إن هذه المقولة تبين بوضوح غرض بوشوشة من هذه المقاومة.وبعد هذه الخطبة الحماسية اتجه إلى نقوسة ودخلها يوم 5مارس 1871دون مقاومة بفضل مساعدة شعانبة بوروبة وفي الغد وصل إلى ورقلة وعسكر بالرويسات ، وكانت المدينة تابعة إلى **علي بأي** من عائلة بوعكاز الذي كان خارج المدينة فاستغل الشريف هذا الفراغ ودخلها دون مقاومة تذكر بفضل مساعدة إتباعه الذين كانوا على اتصال به منذ إن جاء من طرابلس سنة 1865 وكانوا يتابعون أخباره . وقد أورد الشيخ أعزام خبرا مفاده أن سكان البلدة قاوموا الشريف وفي ذلك يقول ((....لما قدم إلى ورجلان ونزلها فتلقاه بعض الناس بورقلة ، واجتمع سكان البلدة من الاعراش الثلاثة واتفقوا على عدم طاعنه .....فلما جمع عسكره خرجت إليه المدينة وقاتلته قتالا شديدا بدا من الصباح إلى العشية ، وكانت الدائرة عليهم فانهزموا ودخلوا المدينة وأغلقوا الأبواب ...))[xxiv]..أما بوشوشة فقد قلل من أهمية المقاومة إذ قال ((..بعد معركة صغيرة بني واقين أطلقوا قليلا من الرصاص..))[xxv].وحسب الشيخ أعزام دائما فان بعض أتباع بوشوشة في القصر قد فتحوا له الأبواب خلسة من جهة بني سيسين فدخل المدينة ونكل بمعارضيه وخاصة من بني إبراهيم وبني واقين وبني ميزاب[xxvi] وقد نصب بوشوشة على ورقلة صديقه ابن ناصر بن شهرة واتخذ من المدينة قاعدة للهجوم على الفرنسيين[xxvii].

وفي يوم 08 مارس اتجه الثوار إلى قمار بعد أن اتصل مجموعة من الشعانبة السواقة طالبين الدعم ضد تسلط **علي بأي** المنصب من طرف فرنسا والذي ترك زمالته وعائلته في قمار بوادي سوف[xxviii].

وعند وصولهم إلى المنطقة كان علي باي خارج الوادي، فراسل الشريف أهل قمار طالبا منهم تسليم زمالة علي باي وأمواله وذخائره، لكنهم رفضوا فاضطر إلى دخول المدينة ومقاتلة أهلها[xxix].

وخلال إقامته بقمار راسلته العديد من القبائل والأعراس من منطقة تقرت طالبة منه القدوم لتخليصها من اضطهاد وظلم عائلة بوعكاز وعلي باي، الخاضعة للسلطات الفرنسية، واتفقت هذه القبائل على مساعدته عند القدوم إلى تقرت، وبفضل هذا التجاوب المحلي دخل بوشوشة إلى تقرت يوم 13 مايو 1871 بقوة قدرت ب 900 مقاتل بعد مقاومة بسيطة من الحامية الفرنسية التي كانت موجودة بالمنطقة، وحسب مخطوط للشيخ بورنان فإن بوشوشة جرح جرحا بسيطا في هذه المعركة ونقل بعد ذلك إلى ورقلة للعلاج.[xxx] وقد انفرد بهذا الطرح الشيخ بورنان فقط أما بوشوشة فلم يورد أنه جرح، وخلال عودته مر على تماسين التي باركه شيخها الشيخ **محمد العيد التماسيني** الذي أهداه مجموعة من الهدايا[xxxi].

وبذلك يمكن القول أن بوشوشة استطاع في فترة لا تتجاوز الشهرين السيطرة على قاعدتين هامتين في الصحراء، اتخذ منهما منطلقا لعملياته العسكرية لمجابهة المحتل وتحرير المناطق الأخرى.وقد عمل الشريف على ضمان الزاوية التجانية ومساندتها. وبذلك ساهمت في مقاومته أغلب الزوايا المتواجدة بالمنطقة.

أما علي باي فلما علم بما حدث في تقرت اتجه إلى الزيبان للاحتجاج لدى الحاكم الفرنسي ضد عائلة بن قانة التي اتهمها بالتواطؤ مع الثوار إلا أن الحاكم الفرنسي انقلب عليه واتهمه بالإهمال والتقصير وتوعده بالمحاكمة،فغادر علي باي بسكرة واتجه صوب تقرت منكلا بكل من ساعد بوشوشة في مدن وادي ريغ، ووصل تقرت يوم 08 جويلية 1871. فوجد أن أهلها قد تحصنوا بها ودارت معركة كبرى لم يحقق فيها علي باي النصر[xxxii]. ووصل المدد إلى

تقرت من ورقلة بقيادة بوشوشة وناصر بن شهرة، فارتحل علي باي إلى بسكرة يوم 13جويلية 1871، وخلال هذه الفترة انضم إلى المقاومة محمد بن عبد الله.وبذلك أصبحت قيادة الثوار في يد الثلاثي المقاوم بوشوشة، بن ناصر بن شهرة، محمد بن عبد الله، وأصبحت المنطقة بكاملها محررة وخاضعة لسلطة الثوار.

وبعد أحداث تقرت ترك بوشوشة بن ناصر بن شهرة خليفة عليها واتجه إلى النومرات بغرداية التي حل بها يوم 21 أوت 1871 برفقة المخادمة وشعانبة بوروبة بطلب من بعض أعيان متليلي الذين اتصلوا به لكي يحل بالمنطقة ويسوي الخلافات بين شعانبة متليلي، وهناك التقى بسي الزوبير ولد سي بوبكر من أولاد سيدي الشيخ، الذي تحالف معه وصاهره. وخيم بوشوشة بالقرب من بني يزقن طالبا من بني ميزاب الدعم والمساندة لكنهم رفضوا ذلك رفضا قاطعا[10]. فلم يلح بوشوشة في الطلب بل غادر المنطقة عائدا إلى ورقلة، إلا أن بعض أتباعه بقوا بالمنطقة واعملوا النهب والسلب في غرداية وواصلو حتى تاجرونة[xxxiii] أما بوشوشة فقد اتجه إلى ورقلة وعين عليها صهره سي الزوبير ورحب به أهلها، وخلال أيام عاد بن ناصر بن شهرة من تقرت وبذلك شكل حلف رباعي مكون من بوشوشة وبن ناصر وبن شهرة وسي الزوبير ومحمد بن عبد الله، لحمل لواء المقاومة التي لم تخف جذوتها منذ 20سنة، ولعل تشكيل هذا الحلف وتزعم بوشوشة له هو الذي جعل بن طريبة يمنحه إمارة التائكين إلا أن فرنسا بدأت تستعيد عافيتها خلال هذه الفترة، إذا اعادت جنودها إلى الجزائر، وفرغت من مقاومة المقراني. وبدأت تخطط لقرب المقاومة بالجنوب.

وخلال شهري سبتمبر وأكتوبر 1871 لم تحدث تصادمات عسكرية كبيرة إذ انشغل قادة المقاومة في محاولة كسب تأييد القبائل الأخرى وانتظار تطور الأحداث، إلا أن فرنسا تحركت خلال هذه المرحلة وأصبحت تعتمد على ضباطها وليس على أعوانها من الجزائريين الذين ثبت فشلهم في كل مرة، إذ أرسلت الجنرال **دولاكروا** الذي تحرك من المسيلة يوم 03 نوفمبر. وفي نفس الفترة تحرك **بولخراص بن قانة** لاستعادة تقرت وكان يخطط للوقوف في وجه بوشوشة الذي التقى به في معركة كويف الحية التي جرح فيها بوشوشة في فخذه كما جرح بعض قادته وبعد هذه المعركة اتجه الثوار إلى ورقلة للاستراحة ومنها إلى حاسي القطار ومنها الى حاسي بوروبة التي بقي فيها الثوار من نوفمبر الى 7ديسمبر 1871 [xxxiv]. وبعد الاستراحة ومداواة الجرحى عاود بوشوشة تنظيم صفوفه حيث قسم جنده إلى خمسة كتائب صغيرة واحدة بقيادته هو وصهره سي الزوبير والثانية تتألف من الشعانبة والثالثة من المخادمة والرابعة بقيادة بن ناصر بن شهرة والخامسة تشكلت من المقرانيين الفارين من الشمال واتجه الجميع إلى حاسي قدور ثم حاسي تامزقيدة [xxxv].وخلال هذه الفترة وصل الجنرال دولاكورا إلى تقرت واحتلها يوم 27 ديسمبر وعين عليها الملازم بن إدريس[xxxvi]وبذلك بدأ نفوذ بوشوشة ينحصر ودخل في المرحلة الأخير من مقاومته.

2) مرحلة التراجع والانهزام 1872-1874

بدأت هذه المرحلة بوصول دولاكروا إلى ورقلة حيث دخلها يوم 05جانفي وانتقم من أهلها انتقاما شديدا حيث أعدم مجلس الجماعة في تكوميت وهو المكان الذي يعرف الآن بعين الموتى أو عين **المتورقين** [xxxvii]، ثم التفت إلى القادة الذين ساندوا بوشوشة ونكل بهم وأمر بتدمير جزء كبير من حي بني سيسين لتعاون أهله مع الثوار ولولا تدخل الشيخ **إبراهيم بن عبد القادر الرويسي** الذي أكد للجنرال أن الديار التي يقوم بتهديمها هي ملكا له [xxxviii]، كما أمر دولاكروا بإحراق بساتين هذا العرش الموجودة في عين بوسحاق ولكن الشيخ تدخل من جديد حيث أكد للجنرال أن الحكومة الفرنسية قد لا تقبل تصرفا مثل هذا والأحسن أن تؤمم هذه البساتين وتستغل من طرف الحكومة عوض أن

.

تحرق، وقد قبل دولاكروا هذا الطرح وأقلع عن حرق البساتين[xxxix].أما العروش التي ساندت الثورة فقد غرمت بمبالغ مالية كبيرة قدرت بـــــ 247.184 فرنك[xl]. وبعد ذلك أرسل الجنرال قوة عسكرية بقيادة العقيد قوم **Gaume** تتشكل من 250 فارس لملاحقة الثوار الذين كانوا يتوجهون إلى الجنوب فلحقت بهم في حاسي تامزقيدة واشتبكت معهم في معركة غير متكافئة ففضل بوشوشة الانسحاب تاركا وراءه 10 خيم وعدد من الجمال، واتجه الجميع إلى أقصى الجنوب وغنم الفرنسيون زمالته بما فيها من مؤن مع النساء والخدم والأطفال وقتل في المعركة عدد من الثوار منهم أحد أحفاد بن ناصر بن شهرة كما قبض على اثنين من كبار المقرانيين وكانت المعركة يوم 09 جانفي 1872[11].

وبعد الحادثة اتجه الجميع إلى قورد بوعيش التي خيموا بها ابتداء من 10 جانفي وخلال هذه الفترة وقعت محاولة لاغتيال بوشوشة، اختلفت المصادر في تفسيرها، وكان ذلك يوم 11جانفي كان منفذها هو أحد أشراف ورقلة وهو **مولاي العربي** وقد أشيع أن مدبر العملية هو بن ناصر بن شهرة الذي كان يريد أن يستولي على 80 ألف فرنك فرنسي كانت قد أرسلت من تونس إلا أن هذه الرواية فندها لوي رين الذي أكد أن المبلغ كان مع بن ناصر بن شهرة وكان يمكن أن يغريه دون محاولة الاغتيال[12]، أما الرواية الأخرى فيرى أن المقرانيين كانوا السبب إلا أن لوي رين مصدر هذه المعلومات كلهاxli، فند ذلك كذلك والسؤال الذي يطرح لماذا أورد رين هذه الروايات أن كان غير مقتنع بها،الحقيقة أن رين هدف من وراء ذلك إلى إبراز ما ألت إليه هذه الحركة من تشتت وانقسام وأنها لم تضم مناضلين أمنوا بالجهاد بل شرذمة وعصابة سراق[xlii].

وبعد ذلك تفرق الشمل فإتجه الشعانبة إلى العين الطيبة في الجنوب أما سي الزوبير فاتجه إلى عين صالح، أما بن ناصر بن شهرة ومعه بعض المقرانيين فدخلوا التراب التونسي[xliii].

أما بوشوشة فبعد استراحة قصيرة عاود نشاطه فاتجه إلى **كرزاز** ومنها إلى توات لتنظيم الصفوف، وفي جويلية 1873 ظهر بين البيض والأغواط، ثم في المنيعة، ثم اقترب من ورقلة محاولا استدراج **السعيد بن إدريس** أخ أغا ورقلة **محمد بن الحاج إدريس** الذي نصب يوم 2 فبراير1872 أغا على ورقلة وقد اندرج تعيينه في إطار السياسة التي نفذتها فرنسا خلال هذه الفترة وهي القضاء على العائلات المحلية، والمجيء بشخصيات جديدة مجنسة بالجنسية الفرنسية لا تدين بالولاء إلا لفرنسا[xliv].

وقد أتت هذه العملية أكلها إذ تصدى السعيد إدريس إلى الشريف في شهر جويلية وهزمه ففر إلى الجنوب، وعاود نشاطه في مارس 1874 لكنه إنهزم مرة أخرى بالقرب من عين صالح في معركة **ملوك**، وأسر من طرف القائد **المعراج بن قدور** وقد روى بوشوشة تفاصيل هذه المعركة حيث قال «...هزمنا، أصحابي هربوا، وبقيت رفقة 10 أو 15 فردا نطلق النار ، بعد ذلك وجدت نفسي وحيدا مجروحا في رجلي، وحصاني مصاب إصابة بليغة لم يستطع الوقوف فتركته، وألقيت بندقيتي وتوجهت إلى القائد معراج بن قدور قائلا: أعطوني الأمان ،لم يجيبني وأخذني إلى سعيد بن إدريس.... [xlv]. واقتيد بوشوشة إلى ورقلة ثم إلى العاصمة وبعدها إلى قسنطينة والسؤال المطروح لماذا لم يؤخذ بوشوشة للمحاكمة في قسنطينة مباشرة، وقد أجاب عن هذا السؤال سيمون الذي أورد لنا هذه الشهادة عن بوشوشة حيث قال أخذ إلى العاصمة عبر الأغواط خوفا من المرور بتقرت وبسكرة التي كانت تتعاطف مع بوشوشة[xlvi]. وفي قسنطينة أحيل على المجلس العسكري وقد روى **إبراهيم بن أيوب بليدي** (**وهو من سكان غرداية**

وعضو في مجلس الضمان) مجريات المحاكمة اذ بين كيف إن فرنسا أتت بالعديد من القياد كشهود وكيف أن بوشوشة تصدى لهؤلاء ونعتهم ببائعي الذمم المنافقين [59] فحوكم كمجرم حرب وحكم عليه بالإعدام الذي نفذ فيه يوم 29جوان1875 بمعسكر الزيتون[60]

وبذلك طويت صفحة هامة من ملاحم الجزائر إلا أن المقاومة لم تتوقف في المنطقة وقبل أن أختم أورد تقييما لأحد المؤرخين الجزائريين لهذه الثورة إذ يقول «...إنها حركة ذات طابع شخصي وأهداف خاصة، ولم تكن تستهدف على ما يظهر من الحوادث سوى بعض الأغراض الشخصية، مثل الثراء والانتقام من الخصوم والحصول على المراكز الاجتماعية والسياسية وأن معظم جهود هذه الحركة استنفذت في معارك جانبية....»[61].

هل نقبل بهذا التقييم؟ هل يمكن لمحمد بن عبد الله وبن ناصر بن شهرة والمقرانيين أن ينخرطوا في حركة لأغراض شخصية وكلهم قضى جل حياته في مقاومة فرنسا، هل يمكن ان تتوىط كا قبائل الصحراء من الزيبان الى الاهقار وتنظم الى حركة جياع وقطاع طرق ،هل يكفي الاعتماد على المصادر الفرنسية المغرضة المزيفة ثم نبني بعدها أحكاما قاسية على رجالا وهبوا أرواحهم لخدمة الوطن حتى وإن أخطؤا في بعض المرات فأن العبرة بالنهايات و.....

إن مقاومة بوشوشة مازالت بحاجة إلى دراسة منصفة تكتب بأقلام جزائرية، فما أصعب أن يظلمك الصديق والعدو.

الهوامش

1- ميدوني قدور معروف ب:بن طريبة ولد سنة 1883 وتوفي سنة 1976، فحل من فحول الشعر الملحون، نظم مئات من القصائد كان اختصاصه شعر الحكمة لم يعرف عنه انه تملق في مدحه حسب ما رواه لي العديد من الذين عاصروه ومنهم الشاعر قطاي الحاج بلقاسم الذي زودني بالعديد من المعلومات المتواترة، والتي سمع بعضها من بن طريبة شخصيا.والقصيدة التي مدحه فيها جاء مطلعها على النحو التالي :

يا سائل لاش تسال لا تسولني ماني هاني ***يحسن عون اللي خاطروا مشوق ما ليه سؤال

وهي قصيدة طويلة تحتاج إلى دراسة متأنية فقد حوت ألوانا متنوعة من حكم وسير وتراجم وتاريخ وحتى جغرافيا. ويهمني هنا البيت التالي:

رآها تعمل كي زمان ما عملت بالزيباني*بوشوشة مير التايكين عاد مكتف بأغلال**

2- أورد الأستاذ يحي بوعزيز أنه ولد حوالي 1826 أو 1827. أنظر يحي بوعزيز **(أضواء على كفاح الشريف بوشوشة)، مدونة أشغال الملتقى المخلد للذكرى الرابعة والثلاثون للانتفاضة الشعبية التاريخية بورقلة** ، طبع بإشراف مديرية الثقافة لولاية ورقلة وجمعية الانتفاضة الشعبية (27 فبراير 1962) ورقلة، 2000، ص26.

3- حسب قصيدة بن طريبة السالفة الذكر وحسب ما رواه لي العديد من شيوخ المنطقة.

4- سليمان حكوم ،**تاريخ ما أهمله التاريخ**، قرص مضغوط حول تاريخ ورقلة، ص 745.

5- نفسه المرجع.

6- Simon, h, "comment Bouchouche raconta un jour son histoire **", Bulletin de liaison Saharienne**, janvier 1955, N° 19, p21.

7- سليمان حكوم: مرجع سابق.

8- نفسه المرجع.

9- Simon,h ,op cit , P21

10- Louis. Rinn . **Histoire de l Insurrection de 1871 en Algérie**, Alger, 1891, pp 79-80.

11- رضوان شافو: **مقاومة منطقة تقرت وجوارها للاستعمار الفرنسي 1852- 1875**، مذكرة ماجستير في التاريخ المعاصر بإشراف أبو القاسم سعد الله، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2007، ص91.

12- نفس المرجع.

13- عبد الجليل التميمي: **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (الجزائر وتونس وليبيا) 1816- 1871**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1985، ص 29.

14- رضوان شافو: مرجع سابق، ص 92.

15- رضوان شافو: مرجع سابق، ص 92

16- نفس المرجع.

17- سليمان حكوم: مرجع سابق، ص788.

18- Le Chatelier , "les Medagnats" Revue Africaine , Alger 1866, p, 04

19- عوا ريب لخضر: ،بدو ورقلة وطوارق الاهقار كرونولوجيات وبداوة من خلال دراسات صحراوية ،**مجلة الواحات للبحوث والدراسات** العدد 15 المركز الجامعي غرداية نوفمبر 2011 . ص ص 470-482

20-Simon H, op cit p 21.

21 -لم يورد بوشوشة أنه رحل إلى طرابلس الغرب ولكنه اخبر بسفره إلى نقطة ينظر: Ibid, p ,21

22 - يحي بوعزيز: المقال السابق، ص26.

23 - Simon H op cit p 21

ولعله اتصل بالزاوية القادرية وبن نااصر بن شهرة الذي سوف يكون احد قواد ثورته.

24- ibid. , p21

25- سليمان حكوم مرجع سابق، ص 788.

26-le chatelierr, op cit , p, 04

27- simon, h, op cit, p, 21

28- حتى يبرر سيمون هذه الهزيمة النكراء يؤكد أن السبب يعود إلى كون جعفر حديث العهد بالقيادة إذ لم يستلم البرنوس والختم إلا أيام قلائل قبل دخول بوشوشة المنيعة، انظر

ibid p21.

29- وعلى عادة سيمون فهو هنا يرى أن سبب الهزيمة يعود إلى كون قوم الأرباع لم يرتاحوا من وعناء السفر فهم خرجوا من الأغواط يوم 07 ماي ليلا، ووصلوا إلى وادي سبسب يوم 11 ماي مع منتصف النهار ودخلوا المعركة مباشرة ينظر هامش: Ibid.

30 - محمد بن معمر: "الشريف بوشوشة زعيم ثورة 1871 في الصحراء الجزائرية الشرقية، مقال في المدونة المذكورة سابقا" ص31. simon, h, op cit pp 24-25

32- حكوم سليمان: مرجع سابق، ص 749.

33- الحاج إبراهيم أعزام: **غصن البان في تاريخ الورجلان**، مخطوط، ص69.

34 -simon, h, op cit p,25.

35- الحاج إبراهيم أعزام: المخطوط السابق، ص69.

36- رضوان شافو: مرجع سابق، ص 94. ولعل السؤال الذي يطرح كيف التحق بن ناصر بن شهرة بالمقاومة ومن المعروف خلال هذه الفترة أنه كان مقيما في نقطة بالجنوب التونسي فهل انظم إلى المقاومة بعد اندلاعها أم أنهكان من مفجريها.

37- نفسه ، ص،94

38- نفسه.

39- نفسه.

40- simon, h, op cit p 27

41- رضوان شافو: مرجع سابق. ص،94.

42 –Louis Rinn , op cit pp 578-590.

43- simon, h, op cit p 28.

44- سليمان حكوم: مرجع سابق، ص 757.

45- يحي بوعزيز: مقال سابق، ص 35.

46- رضوان شافو: مرجع سابق، ص 102.

47- سليمان حكوم: مرجع سابق، ص 757.

48- إبراهيم أعزام: المخطوط السابق، ص ص 73-75.

49- نفسه.

50- سليمان حكوم: مرجع سابق، ص759.

51- نفسه ص760.

52- محمد بن معمر: مقال سابق، ص53.

53- نفسه.

54- نفسه

55- Louis Rinn op cit pp 578-590

56- محمد بن معمر: المقال السابق، ص 54.

57 -simon h op cit p 28

58- lbid, p,28

59-إبراهيم بن أيوب بليدي ، **تأليف لإعطاء الضوء للصحراء** ، المطبعة الجديدة ، سكيكدة، 1903،ص ،66، نظرا لأهمية هــذا الكتاب حاولت الحصول عليه في المكتبات العمومية دون اثر وأخيرا صوره لي احد الأصدقاء من غرداية مشكورا ،وهو كتاب هام يحتاج إلى دراسة متأنية وموضوعية كونه قد حوى معلومات هامة عن منطقة ميزاب في أواخر القرن 19 وبداية القرن20 توضح العلاقة بين بعض أعيان المنطقة والسلطة الفرنسية ومواقف سكانها تجاه العديد من القضايا

60 -louis rinn op cit pp 578-590.

61 –يحي بوعزيز: مقال سابق، ص38.

.

.

.

)